

## بعد التدخل الروسي: توزيع القوى والعمليات في سوريا



### ملخص:

لا تنحصر عوامل فشل استراتيجية بوتين في خطة التفاوضية بفينا، بل تتعذر إلى الشروط التي اعتقاد أنه تمكّن من توفيرها لإنجاح خطته، وهي إقناع مختلف القوى الفاعلة في الأزمة بأهداف مشتركة، وينبغي تدخله العسكري المباشر الذي يعيد ترجيح كفة النظام في موازين القوى العسكرية. فالأهداف تعاني من تناقضات تعمق التباعد بين أطراف الأزمة بدلاً من التقارب بينهم، ولا تمتلك روسيا القوة الكافية لفرض ميزان قوى جديد لا يستطيع خصومها تغييره، ويقوّي تدخلها العسكري تنظيم الدولة في فاقم المخاطر التي وعدت بالقضاء عليها.

### مقدمة:

ينعقد اللقاء الثاني حول الأزمة السورية بفينا بداية الأسبوع القادم، وقد أكدت تقريراً كل الدول التي حضرت اللقاء الأول مشاركتها. ومن المرجح أيضاً أن تشارك إيران، رغم تصريحات بعض مسؤوليها التي لا تستبعد المقاطعة إن لم تحصل على بعض التنازلات المسبقة، وسيعمل المجتمعون على تسوية النقاط العالقة بناء على النقاط المتفق عليها في اللقاء الأول.

اتفق المشاركون في لقاء فينا الأول، المنعقد في 30 سبتمبر/أيلول، على دعوة الأمم المتحدة إلى جمع النظام السوري والمعارضة حول طاولة حوار، من أجل إطلاق عملية سياسية تقود إلى تشكيل حكومة جديرة بالثقة وغير طائفية ولا تقصي أحداً، تتكلف بوضع دستور جديد، وتنظيم انتخابات تحدّد شكل النظام السوري الجديد.

نحوت روسيا في إقناع خصومها بأن التوافق على آليات الحل، يؤدي إلى إنشاء جو من الثقة يُسهل التوصل إلى تسوية سياسية، فأعفت نفسها من التفاوض الجاد على المضمون الحقيقي للأزمة، وهو: مستقبل الأسد، ومصدر السلطة الجديد، ومستقبل التفويذين الروسي والإيراني في البلد. فما هي مثلاً علاقة هذه الحكومة مع الأسد: هل تخضع له أم أنها تتمتع بصلاحياته؟ وما سلطتها وأدواتها في تنظيم انتخابات شفافة ونزيهة تعيّر عن خيارات السوريين؟ ما علاقتها بالأجهزة الأمنية الموالية للأسد؟ وما مستقبل القوات الإيرانية والموالية لها؟ وما مستقبل الوجود العسكري الروسي؟

حصلت من هذا الاجتماع أول المكاسب السياسية لتدخلها العسكري المباشر في سوريا، فلقد فرضت لأول مرة مشاركة حليفها الإيراني في التفاوض، ومنعت مشاركة المعارضة السورية، ووضعت أساساً للحل السياسي، وإن كانت فضفاضة، لا تضع رحيل الأسد ورحيل القوات الروسية والإيرانية شرطاً مسبقاً للتسوية السياسية، وباتت تفاوض، من موقع الندية، الولايات المتحدة، على أهم قضية قد تعيّد صياغة نظام الشرق الأوسط بكماله.

تمكّنت من تحقيق هذا الإنجاز لأن تدخلها العسكري أعطى انطباعاً بأنها قادرة على حماية النظام من السقوط ومنع أية تسوية لا ترضاهما، أو إقناع حلفائها بتقديم التنازلات الضرورية لعقد صفة سياسية تضمن مصالحهم الحيوية. لكن تعرضت لنكستين، بعد أكثر من شهر بقليل من الاجتماع الأول، ستجعلان موقفها أضعف في اجتماع فيينا الثاني:

**أولاً: نجح تنظيم الدولة بمصر**، حسب ترجيح دول غربية<sup>(1)</sup>، في تفجير طائرة ركاب روسية، فأظهر أن موسكو التي تعجز عن حماية مواطنها ستكون أعجز عن حماية مواطني البلدان الأخرى، وأنه قادر على منازلتها في السماء التي اعتقدت أنها تسيطر عليها، وأن يفرض عليها مواجهة شاملة كانت تريد حصرها داخل الحدود السورية.

**ثانياً: لم يستبعد وزير الدفاع الأميركي، آشتون كارتر، أن تكون روسيا أخطر من تنظيم الدولة<sup>(2)</sup>**، وهو يعيّر بلا شك عن تحول متدرج في موقف إدارته من الدعوة إلى التعاون بين البلدين لقتال التنظيم، إلى التشكيك في جدوى التدخل الروسي المباشر بسوريا، إلى إعطاء الأولوية للتصدي له.

يتضافر التحولان في التشكيك بجدوى انعقاد لقاء فيينا الثاني، وضرب المكاسب التي حققتها روسيا في جولته الأولى، وتغيير التناقضات بين أطرافه ومضامينه.

لا تنحصر عوامل الفشل في الاستراتيجية التفاوضية المتبعة، بل تتعذر إلى الشروط التي اعتقد الرئيس بوتين أنه تمكّن من توفيرها لإنجاح خطته، وهي إقناع مختلف القوى الفاعلة في الأزمة بأهداف مشتركة، وبقبول تدخله العسكري المباشر الذي يعيّد ترجيح كفة النظام في موازين القوى العسكرية. فالأهداف تعانى من تناقضات تعمّق التباعد بين أطراف الأزمة بدلاً من التقارب بينهم، ولا تمتلك روسيا القوة الكافية لفرض ميزان قوى جديد لا يستطيع خصومها تغييره، ويقوّي تدخلها العسكري تنظيم الدولة فيفاقم المخاطر التي وعدت بالقضاء عليها.

#### أهداف متضاربة:

يتضمن خطاب الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، أمام الأمم المتحدة، في 28 سبتمبر/أيلول<sup>(3)</sup>، مجمل أهدافه من التدخل العسكري المباشر في سوريا، لكنه توسيع بعد ذلك في تفصيلها في لقاءات إعلامية مختلفة، ويمكن تصنيفها إلى أهداف تكتيكية وأهداف استراتيجية:

**القضاء على تنظيم الدولة والجماعات التي تصنّفها روسيا إرهابية**، وهي تقرّباً كل الجماعات السنية المسلحة التي تناهض روسيا وحلفاءها.

وراء هذا الهدف التكتيكي، ت يريد روسيا تحقيق عدّة أهداف استراتيجية، أحدها داخلي، وهو استباق أي تنامٍ للتمرد المسلح داخل الأقلية المسلمة في روسيا، والتي تمثل تحدياً جدياً في المستقبل القريب، لأن حجمها الذي يبلغ حالياً نحو 20 بالمئة، يزداد بسرعة أعلى من الأكثريّة الأرثوذكسيّة، وستزداد ضغوطها على النظام الروسي ليوسّع مشاركتها في السلطة، و يجعل قيمها جزءاً من الهوية الروسيّة، التي تكاد تنحصر حالياً في اللغة والميسيحيّة الأرثوذكسيّة والحنين للعظمة الإمبراطوريّة، ولا تعطي مكاناً للقيم الإسلاميّة.

الهدف الاستراتيجي الآخر، لعب دور الحامي من خطر تنظيم الدولة لعدد كبير من الدول بأوروبا والشرق الأوسط وأسيا، مقابل اعترافها بروسيا قوة دولية لا غنى عنها في إدارة النظام العالمي.

**الهدف التكتيكي الثاني: الحفاظ على نظام الأسد.**

**توجد خلفه عدة أهداف استراتيجية:**

من أي تغيير ثوري، حتى لا يتكرر ما وقع في بداية التسعينات بجوار روسيا، في ما يسمى بالثورات الملونة، والتي سمحـت للغرب بتوسيع نفوذه تحت شعارات نشر الديموقراطية وحقوق الإنسان واقتصاد السوق.

ترسيخ هيبة روسيا كحليف يمكن الاعتماد عليه؛ حيث وقفت إلى جانب النظام السوري سياسياً، باستعمال حق التضـنـلـلـلـحـمـاـيـةـهـ؛ وعـسـكـرـيـاـ، بإـمـادـهـ بـالـسـلاحـ وـالـقـتـالـ إـلـىـ جـانـبـهـ حـيـنـمـاـ اـقـضـتـ الـحـاجـةـ بـخـلـافـ الرـئـيـسـ الـأـمـيـرـكـيـ بـارـاـكـ أـوـبـاـمـاـ الـذـيـ تـخـلـىـ عـنـ حـلـفـاءـ أـمـيـرـكـاـ مـنـ الـقـادـةـ الـعـرـبـ الـذـيـنـ أـسـقـطـهـمـ الـثـورـاتـ، ثـمـ تـخـلـىـ عـنـ الثـورـاتـ الـتـيـ وـعـدـ بـدـعـمـهـاـ لـمـ تـصـدـتـ لـهـاـ قـوـىـ الـثـورـةـ الـمـضـادـةـ، فـخـسـرـ الـأـنـظـمـةـ السـابـقـةـ وـلـمـ يـرـبـحـ الـقـوـىـ الـثـورـيـةـ.

**حـفـظـ مـنـافـذـ الـأـسـطـوـلـ الـرـوـسـيـ نـحـوـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتوـسـطـ، يـحـقـقـ هـدـفـينـ:**

ضمان حركة القوات الروسيّة نحو مختلف مناطق العالم، فتحظى تعهـدـاتـهاـ بـدـعـمـ الـحـلـفـاءـ بـالـمـصـدـاقـيـةـ، وـهـيـ شـرـطـ لـأـيـ قـوـةـ تـتـطـلـعـ لـلـعـبـ دورـ دـوـلـيـ.

ومن جهة أخرى، يضع تركيا، العضـوـ فيـ الـحـلـفـ الـأـطـلـسـيـ، بـيـنـ فـكـيـ كـمـاشـةـ يـمـزـقـانـ قـوـاتـهاـ بـيـنـ حـمـاـيـةـ الـحـدـودـ الـشـمـالـيـةـ وـحـمـاـيـةـ الـحـدـودـ الـجـنـوـبـيـةـ.

**المدخل الخطأ والحـصـانـ الـخـاسـرـ:**

**يرتكـزـ بوـتـيـنـ فـيـ خـطـتهـ عـلـىـ قـاعـدـتـيـنـ:**

**أـوـلـاـ:** إـقـنـاعـ الـقـوـىـ الـمـتـصـارـعـةـ عـلـىـ سـوـرـيـاـ بـالـتـعـاـونـ لـمـواـجـهـةـ خـطـرـ تنـظـيمـ الـدـوـلـةـ الـمـشـتـرـكـ، ثـمـ بـضـرـورـةـ التـسـلـيـمـ بـأـنـ نـظـامـ الـأـسـدـ ضـرـوريـ لـلـتـصـديـ لـهـ.

اعتقد بوتين بأن هـدـفـ مـكافـحةـ التـنـظـيمـاتـ "ـالـإـرـهـابـيـةـ"ـ، الـذـيـ يـعـدـ مـحـلـ إـجـمـاعـ دـوـلـيـ، يـسـهـلـ تـمـرـيرـ أـهـدـافـهـ وـأـهـدـافـ حـلـفـائـهـ الـخـاصـةـ الـتـيـ تـعـدـ مـحـلـ خـلـافـ مـعـ خـصـومـهـ، مـثـلـ تـصـوـيرـ تـنـاميـ التـواـجـدـ الـعـسـكـرـيـ الـرـوـسـيـ بـأـنـ ضـرـوريـ لـلـإـبـقاءـ عـلـىـ نـظـامـ الـأـسـدـ باـعـتـبارـهـ الـقـوـةـ الـشـرـعـيـةـ الـوـحـيـدـةـ الـقـادـرـةـ عـلـىـ تـخـلـيـصـ الـجـمـيعـ مـنـ الـخـطـرـ الـمـشـتـرـكــ.ـ لـكـنـ هـذـهـ التـرـكـيـةـ لـاـ تـحـظـيـ بـقـبـولـ الـأـطـرـافـ الـمـنـاوـئـةـ الـتـيـ تـبـنـيـ مـوـاقـفـهـاـ بـنـاءـ عـلـىـ النـتـائـجـ الـمـتـرـبـةـ عـلـىـ قـتـالـ الـجـمـاعـاتـ "ـالـإـرـهـابـيـةـ"ـ وـتـنـظـيمـ الـدـوـلـةـ؛ـ فـمـثـلـاـ تـرـفـضـ الـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـانـخـرـاطـ الـكـامـلـ فـيـ أـيـ قـتـالـ يـقـوـيـ الـمـيلـيشـيـاتـ الـشـيـعـيـةـ وـإـحـكـامـ سـيـطـرـهـاـ عـلـىـ الـحـكـمـ بـالـعـرـاقـ،ـ وـتـرـفـضـ تـرـكـياـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ أـيـ قـتـالـ يـقـوـيـ الـانـفـسـالـيـيـنـ الـأـكـرـادـ الـذـيـنـ تـعـتـبـرـهـمـ الـخـطـرـ الرـئـيـسـيـ عـلـىـ أـمـنـهـاـ.ـ وـتـمـتـنـعـ السـعـودـيـةـ عـنـ خـوضـ أـيـ مـواجهـةـ مـسـلـحةـ تـقـوـيـ منـ نـفـوذـ إـرـانـ وـالـمـيلـيشـيـاتـ الـشـيـعـيـةـ الـمـوـالـيـةـ.

الأولى: تعتقد دول عربية وغربية أن نظام الأسد أخطر من التنظيمات الإرهابية.

والثانية: يفتقد للقوة العسكرية الضرورية لإنجاح خطته، التي تعتمد بشكل رئيسي لحد الآن على القصف الجوي؛ حيث لا يمكنه تحقيق نتائج لم تتحققها 7000 غارة شنّها طيران التحالف بقيادة أميركا، خلال نحو عام، على تنظيم الدولة في العراق؛ علاوة على أن سلاحه الجوي أقل كفاءة، لأنه يعاني من صعوبة التموين لابتعاده عن قاعدته الرئيسية بالبحر الأسود، ويضطر إلى قطع مسافات طويلة عبر إيران والعراق للوصول إلى سوريا<sup>(4)</sup>، ولا يمتلك التقنيات المتطورة الكافية لتوجيه المقدوفات، وتنقصه المعلومات الاستخبارية الضرورية لتحديد الأهداف. وتدل تجارب الحروب السابقة على عجز سلاح الطيران عن حسم المعارك إذا لم يستند إلى قوات برية تقاتل على الأرض، ولا تعد حرب البوسنة استثناء، فمع أن الشائع أن طيران الحلف الأطلسي حسم المعركة من الجو، إلا أن الحقيقة بخلاف ذلك، فالعامل الحاسم كان سياسياً وليس عسكرياً.

قد يعتمد السلاح الجوي الروسي على قوات نظام الأسد البرية والقوات الإيرانية والفصائل الموالية لها، لكن نجاحه في كسب الحرب ليس محسوماً، بل قد يعد انحرافه في القتال المباشر، اعترافاً من الكرملين بفشل الجيش النظامي السوري، ثم قوات حزب الله والميليشيات الإيرانية، ولن يكون الدعم الجوي، الذي لم يفتقدوه بشكل عام، عاملاً كافياً لنجاحهم فيما أخفقوا فيه خلال السنوات الماضية.

لا تعاني موسكو من ضعف في الجانب العملياتي وحسب، بل من اختلالات في الاستراتيجية الشاملة المعتمدة، فهي تسعى إلى تطبيق استراتيجية غير تناهيرية في سياق مختلف عن السياق الذي ساعد، من قبل، على نجاحها. فهي حملتها العسكريةتين بجورجيا وأوكرانيا، استعملت الرابط اللغوي لتشكيل جماعات متمردة موالية، ثم أعادتها للاستيلاء على مناطق محاذية لروسيا، وحرست على أن تظل جزءاً من استراتيجيتها، تستعملها كأداة ابتزاز لدول الجوار التي ترفض هيمتها. وقد كانت هذه الاستراتيجية فعالة إلى حدٍ ما، في الحالتين الجورجية والأوكرانية، لأن المتمردين الموالين واجهوا دولاً تحرص على بقائهما والسيطرة على إقليمها، وترضى، في بعض الأحيان، بخسائر جزئية، لكن الوضع في سوريا مختلف، فروسيا تقف إلى جانب النظام في مواجهة المعارضة المسلحة، ولا يمكنها ابتزازهم باقتطاع جزء من إدلب مثلاً أو حمص أو حلب للتغيير سياساتهم؛ بل إن حليفها، النظام السوري، هو الذي يعاني من الابتزاز، لأن حفاظه على وحدة الإقليم والسيطرة عليه أساس شرعيته الدولية، وأي خسارة لجزء منهما طعن فيها.

والملحوظ، أن إيران تعتمد نفس الاستراتيجية وتواجه المعضلة نفسها؛ فلقد شكّلت جماعات مسلحة موالية ترتبط في الغالب معها برباط أيدиولوجي، ثم تشجعها على رفض الوضع السائد وتغييره لتكون متحكمة في الدولة أو تملك القدرة على شلّها، وقد حققت نجاحات حين كانت تعارض السلطة القائمة، كما في لبنان، لكنها فشلت، لما تحول حلفاؤها إلى سلطة بديلة، كما في العراق واليمن، أو مدافعين عن سلطة قائمة كما في دفاع حزب الله وفيلق القدس عن نظام الأسد.

تُخالف الدولتان أيضاً، مبدأ استراتيجياً مهماً، هو الامتناع عن تشتت الجهود وتركيزه على مركز جاذبية الخصم<sup>(5)</sup>، لكنهما وزعا قواتهما على عدة جبهات، فروسيا شتّت قواتها على ثلاث جبهات: الجورجية، والأوكرانية، والسورية، وقد اضطررت مثلاً إلى القبول بهدنة مع أوكرانيا حتى تتمكن من تخصيص قوات تخوض القتال في الجبهة السورية<sup>(6)</sup>، وقد تفقد توازنها في أية لحظة لو اشتعلت الجبهات الثلاثة معاً، فتضطر إلى الموازنة بينها، وإعطاء الأولوية دون شك للجبهات المحاذية لها، والمخاطرة بخسران الحرب في سوريا.

وضع إيران مماثل؛ حيث تخوض قتالاً، في العراق، وسوريا، وتحرص على دعم الحوثيين في اليمن، وقد استنزف تعدد

الجبهات وطول القتال قواتها، فخسرت مؤخراً عدداً من قادة الصف الأول في معركها بسوريا، وقد تتفاقم مستقبلاً المخاطر المهددة لأمنها القومي، إذا تمكّنت طالبان، كما هو مرجح، من السيطرة على أفغانستان، فتقع في مأزق الاختيار بين توجيه قواتها لحماية حدودها الشرقية من خطرهم، أو تركيزها على الجبهة الغربية لحمايتها من تنظيم الدولة، ومن تداعيات أي سقوط مفاجئ لنظام الأسد.

قد تحرص الدولتان على تفادي هذا الكابوس بالسعى إلى تحقيق نصر سريع في الجبهة السورية لتوجيه قواتهما إلى جبهات أخرى، لكنهما لا تسيطران على الوقت، بل تسيطر عليه المعارضة السورية المسلحة التي لا تمتلك خياراً آخر غير الاستمرار في القتال، مهما طال، لأنها لا تمتلك وطناً آخر ترحل إليه.

#### تمدد عسكري وانكماش اقتصادي:

يستطيع الاقتصاد الروسي تحمل الحملة العسكرية في سوريا، بمستواها الحالي، لفترة طويلة، حسب وحدة الإيكonomisst للأبحاث، التي قدّرت أعباءها، استناداً لعدة دراسات مختصة، بين 1.5 مليار إلى 2 مليار دولار سنوياً، لكن ستتضاعف عدة عوامل مستقبلاً على روسيا فتضطرها إلى زيادة انحرافها، مثل فشل القوات البرية المشتركة للنظام وإيران وأعوانهما في وقف تقدم قوات المعارضة المسلحة، وانكشاف القواعد الروسية أمام القصف أو الهجمات البرية، فترتفع تكلفة الحرب ارتفاعاً كبيراً، لأن موسكو ستضطر إلى استعمال قواتها ببحر قزوين لإطلاق مزيد من الصواريخ الموجّهة، التي تبلغ تكلفة كل منها 36 مليون دولار، أو تقرر إضافة قوات جديدة إلى 4000 جندي متواجدين حالياً بقواعدها في سوريا.

ليست تلك التكاليف، مهما ارتفعت، إلا جزءاً بسيطاً من تداعيات العزلة التي ستفرضها الدول المناوئة للتدخل على الاقتصاد الروسي. مثلاً كانت أضرار الاقتصاد الروسي من العقوبات الغربية أكبر من تكاليف حملة احتلال القرم. فمن المرجح، أيضاً، أن تتخذ الدول المناوئة للتدخل الروسي المباشر في سوريا حزمة من العقوبات الاقتصادية، قد تكون معلنة، أو قد تكون غير معلنة، مثل حرص السعودية على إبقاء أسعار النفط منخفضة، وتحركها لأخذ حصة من سوق الطاقة ببولندا، التي تعد سوقاً للطاقة الروسية، وقد اعتبرت مجموعة بلومبرغ المختصة في الشأن الاقتصادي هذا التحرك جزءاً من استراتيجية سعودية تتوخى دعم الدول التي توجد بجوار روسيا وتناهض هيمنتها، وتصدت في السابق للاتحاد السوفيتي الذي يحُنّ بوتين إلى أمجاده<sup>(7)</sup>.

ليس من المستبعد أيضاً أن تتصدى الدول الغربية لاستراتيجية بوتين الشاملة باستراتيجية عقوبات اقتصادية شاملة، فتفق مع السعودية وتركيا وقطر على تبني استراتيجية موحدة، تستنزف الاقتصاد الروسي، حتى يضطر الكرملين إلى التخلي عن أحالمه الإمبراطورية مقابل الانتفاع من فرص السوق العالمية. وقد أثبتت عدة تجارب تاريخية، مثل إيران مؤخراً، أو الاتحاد السوفيتي سابقاً، أو الصين في عهد دنغ شياو بونغ، أنها تميل إلى الخيار الثاني.

يفتقر بوتين، في المحصلة، إلى الموارد الاقتصادية الضرورية لتمويل حملات عسكرية واسعة وطويلة الأمد، لأنه يواجه أوضاعاً اقتصادية غير مواتية، فسعر البترول يتراجح حالياً حول 50 دولاراً، فتفقد روسيا توازناتها المالية، التي تستند إلى سعر 105 دولارات للبرميل حتى تستطيع مداخيلها تغطية مصروفاتها في سنة 2015، حسب بيانات عدد من المؤسسات المالية<sup>(8)</sup>.

#### تضارف عدة عوامل على مقاومة هذا الاحتلال مستقبلاً:

رجحان تأرجح أسعار البترول حول 60 دولاراً خلال عشر سنوات قادمة، حسب الخبراء الاقتصاديين نوريال روبيني<sup>(9)</sup>، فتظل

الخزانة الروسية تعاني من العجز في توفير الموارد المالية لتغطية مصروفات الدولة.

رجحان استمرار العقوبات الاقتصادية المفروضة على روسيا نتيجة احتلالها لجزيرة القرم، ورعايتها لحركة انفصالية بشرق أوكرانيا(10). واحتمال أن تتعزز بإجراءات عقابية اقتصادية تتخذها السعودية وقطر وقد تشارکهما تركيا، ولكن بدرجة أقل، لأن اعتمادها على الطاقة الروسية، لإشباع خمس حاجاتها الاقتصادية يحد من خياراتها(11).

ارتفاع المصروفات الحكومية، من أجل الاستيراد، والدعم الاجتماعي، والتلوّع في تحديد المؤسسة العسكرية.

قد تعالج الحكومة الروسية الخلل الناتج في الموازنة باستعمال الاحتياطي المالي، لكنه سينصب، حسب الخبر الاقتصادى أندرس أسلوند، نهاية العام القادم 2016(12)، فتضطر إلى الاستدانة، لكن العقوبات الاقتصادية الغربية تحرمها من الوصول إلى الأسواق المالية الخارجية، فتلجأ إلى تخفيض النفقات، فتتردى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وقد تضطرب الأوضاع الداخلية، فتفقد القيادة الروسية التماسك الداخلي الضروري لحروبها الخارجية.

يواجه حينها بوتين نفس المعضلة التي واجهها الاتحاد السوفيتى في المفاصلة بين الزبدة والسلاح، أي الاختيار بين التنمية الاقتصادية والمجد الإمبراطوري، لكنه يعرف هذه المرة تبعات كل خيار، فقد أدى تجاهل أثمان المجد الإمبراطوري إلى انهيار الاتحاد السوفيتى، وأدى خيار التنمية الاقتصادية إلى رفع الصين من مصاف العالم الثالث إلى الأول، وجعلها قاطرة العالم الاقتصادية، ووفر مزيداً من الموارد لتطوير قواتها العسكرية.

#### مما مفاجأة المخاطر:

من التدخل الروسي المباشر تنظيم الدولة فرصة لعب دور حامي المسلمين السنة الذي كان يتطلع إليه، فنجح، بفضل فرعه في سيناء، في تفجير طائرة الركاب الروسية، كما ترجم عدة دول غربية، فأظهر أنه القادر على تكبد بوتين خسائر بشرية تضطربه إلى القبول بتنازلات، مثل إجلاء مواطنه من مصر وتعليق الرحلات المتوجهة إليها، حتى لا تنها شرعنته الداخلية. ومن المرجح، أن يؤدي نجاح هذه العملية إلى التحاق أعداد جديدة من المقاتلين بتنظيم الدولة، فيحرص على تكرارها، والسعى إلى نقلها إلى داخل روسيا لضرب هيبة بوتين بإظهاره عاجزاً حتى عن حماية بلاده.

#### تفويت هذا الاتجاه عدّة عوامل متضادرة:

لم تكن موسكو جدية أبداً في قتال التنظيم؛ حيث رفضت المشاركة مع قوات التحالف التي شرعت منذ عام في قتاله بقاعدة الرئيسية بالعراق، التي تعد أهم من فرعه في سوريا، وأقل تعقيداً، لأن النظام العراقي، بخلاف السوري، يحظى بقبول الجميع، ولا يسعى أي طرف لاسقاطه.

يركّز طيرانها قصفه بشكل رئيسي على المعارضة المسلحة، التي تصنّف في معظمها بالمعتدلة، ويشارك بعضها في برامج التدريب الأمريكية، وقد يكون ينفذ خطة تمليلها اعتبارات استراتيجية وسياسية، فالمعارضة المسلحة المعتدلة تمثل خطراً داهماً على النظام السوري لأنها تضغط على مراكزه الحيوية، وتمثل بديلاً سياسياً له، وشريكاً للقوى الغربية، لكن نجاحه في إضعافها لن يكون مكتسباً للأسد بل قد يصب في مصلحة تنظيم الدولة، كما حدث في ريف حلب(13)؛ حيث استولى على موقع خسرتها المعارضة السورية المعتدلة.

دلت التجربة أيضاً على أن القضاء على جماعات المعارضة المعتدلة يدفع قطاعات واسعة من السوريين، الذين كانوا تحت حمايتها، ليس إلى الرضوخ للنظام، بل إلى البحث عن حام جديد، قد تجده كما حدث في العراق في تنظيم الدولة، الذي

انضمت له عشائر سنية لطرد القوات العراقية من الموصل، فوفرت له حاضنة شعبية، تمنه عمقاً اجتماعياً يرسخ وجوده. وقد اعترف باراك أوباما بوجود هذا الرابط، ودعا إلى كسره بتلبية تطلعات المتذمرين الاجتماعية والسياسية(14).

تضفي روسيا صفة "الإرهاب" على كل معارضيها حتى تنزع عن المعتدلين أي شرعية سياسية، فتسد آفاق الحل السياسي أمامهم، فلا تترك لهم من خيار إلا تغليب خيار القوة، فتتولى القيادة جماعات متشددة، قد تعتقد أن تنظيم الدولة على حقٍ في استهانته بالحلول السياسية، فتحالف معه أو قد تذوب فيه لتوحيد الجهد في مواجهة الخطر المشترك. وتمثل دعوة أيمن الظواهرة الجماعات المقاتلة إلى تجاوز خلافاتها والتركيز على القوات الروسية مؤشرًا على هذه الإمكانية(15).

يسهم الاستقطاب الأيديولوجي أيضاً في تقوية تنظيم الدولة، فلقد اعتبر حربه جهاداً للشيعة والصلبيين، وقد وفرت إيران الواقعة الداعمة لذلك، فهي تعتمد في عملياتها القتالية بسوريا، على فيلق القدس المكافِف بنشر الثورة الإسلامية، والميليشيات الشيعية من العراق وأفغانستان ولبنان وباكستان. أمّا روسيا، فلقد صورت كنيستها الأرثوذكسية التدخل في سوريا حرباً مقدسة لحماية المسيحيين(16). لا يحتاج التنظيم لأكثر من ذلك لإقناع السنة بالالتحاق به للجهاد، وكما يقول المثل: مع مثل هذا النوع من الأصدقاء ستنهزم دون جهد من الأعداء.

### **أحجية الحل السياسي:**

تحُول عدة اعتبارات دون توصل الأطراف المتنازعة إلى حل سياسي توافقي، فلو اتفقت مثلاً على الاحتكام إلى الانتخابات، فإن النتيجة ستكون، حسب التركيبة السكانية والاستقطاب الطائفي، إمساك السوريين السنة بمقاصل السلطة، وهو ما توعّد وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف بالتصدي له(17)، وتخشى إيران من تبعاته على نفوذها بالعراق، ولبنان.

ولو أرادت مثلاً، تشكيل نظام محاصصة طائفي شبيه بالنظامين اللبناني والعربي فإن المكوّن السنّي يمثّل من جديد الأغلبية، ولا يمكن للمكوّن العلوي أن يصمد في مواجهته إلا إذا حافظ على ميليشيا مسلحة أقوى من الجيش النظامي كما هي الحال في لبنان، أو أنّا إقليماً شبه مستقل تحميه ميليشيات معترف بها، كما هي الحال في إقليم كردستان بالعراق، لكن يحتاج في الحالين إلى أن يظل مسيطراً على الدولة حتى يفرض عليها توفير الغطاء الشرعي لبقاء النفوذين الإيراني والروسي في سوريا.

يفتقر هذا الخيار إلى عوامل تتحقق، لأنّه يدفع الرافضين لنفوذ الإيراني والروسي إلى توحيد جهودهما لتقويته.

لا يحظى خيار التقسيم بفرص أفضل، لأن المعارضات المسلحة والقوى الداعمة لها، تشارك في رفضه، لأنّه يوفر غطاء لاستمرار التواجد العسكري الإيراني والروسي، وقد تواصل حربها على النظام حتى ينهار، وعلى القوات الروسية والإيرانية حتى تضطر إلى الرحيل.

### **الفشل المتوقع:**

اعتقدت القيادة الروسية أن تدخلها العسكري المباشر في سوريا يجعلها لاعباً مركزياً في التسوية، ويضطر جميع الأطراف المتنازعة إلى القبول بشروطها، لكن ديناميات التدخل ترجح حدوث نتائج معاكسة تضرّ أهم دعامتين راهن عليهما وقامت عليهما استراتيجية بوتين، وهما:

تشكيل نواة حلف دولي واسع مناهض للقوى الغربية.

يعاني الحلف الروسي- الإيراني المناوئ للغرب من معضلة أساسية؛ حيث تعتبر إيران إسرائيل خطراً مباشراً على أمنها ونفوذها، وتحرص على تقوية حزب الله ليكون رادعاً لها، بينما تعتبرها روسيا شريكاً تحرص على مصالحه، وترفض الإسهام في أي عمل يخلُّ بموازين القوى الراجحة لصالحه، وسينجر التناقض بين الرؤيتين إذا زالت حاجة البلدين للتعاون للحفاظ على النظام السوري، خاصة إذا نجحا في مساعهما، واضطررت إيران إلى التخلص من القيود الروسية، لتعزيز قواتها لمواجهة تنامي القوة الإسرائيلي.

لا يحظى هدف استعادة الدور المركزي في شؤون العالم بفرص أفضل؛ فمن المرجح أيضاً أن تزداد عزلة روسيا الدولية، فلقد أدى احتلالها القرم إلى خسارة الشعب الأوكراني الذي بات يعتبرها دولة احتلال، وتوثيق التضامن الأوروبي-الأميركي بدلاً من إضعافه كما كانت ترجو، وأفرغ تجمعها الأوروبي-آسيوي من أي مضمون استراتيجي وحصره في التعاون الاقتصادي، وأيقظ مخاوف الدول التي كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي، والدول التي تخشى من أن يستعمل بوتين مبدأ حماية الناطقين بالروسية ليحتل جزءاً من إقليمها.

سيوقعها تدخلها العسكري المباشر في سوريا، في عزلة جنوبها؛ حيث ستبدو دولة احتلال، ومساندة للأقليات الطائفية والمذهبية على حساب الأكثريية السنية. وليس من المستبعد أن تنتهز أميركا الفرصة لتكوين طوق مشترك يحيط بغرب روسيا وجنوبها، فيستنزف قدراتها، حتى تضطر إلى التخلي عن سياساتها التوسعية. وما يؤشر إلى هذا المنحى الجديد، تصريح وزير الدفاع الأميركي بأن روسيا قد تكون أخطر من تنظيم الدولة.

وتدل التجربة على أن الولايات المتحدة قد تحالفت مع الخطر الثانوي للقضاء على الخطر الرئيسي كما تحالفت مع ستالين للقضاء على هتلر خلال الحرب العالمية الثانية، أو تحالفت مع المجاهدين الأفغان للاحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي. وحتى إن لم تحالف، فقد تتسامح مع الخطر الثانوي إذا كان يشاركها في قتال الخطر الرئيسي. وقد يجعلها هذا الترتيب الجديد للمخاطر، ترفع الحظر عن تسليم المعارضة الصواريخ المضادة للطيران الروسي رغم احتمال وقوع بعضها بيد الجماعات التي تضعها أميركا في قوائم الإرهاب.

يُشَبَّهُ خبراء استراتيجيون مهارات بوتين الاستراتيجية بمهاراته في الجيد؛ حيث يعتمد في كلٍّ منهما على استعمال قوة الخصم للاحاق الهزيمة به، لكنه اختار في سوريا الرهان على قوته بدلاً من قوة خصمه، فلا يتوقع في فيينا نتيجة مغايرة للتي أحقها سابقاً بخصومه.

لقراءة النص بصيغة PDF [إضغط هنا](#)

هوامش:

1- برلين ترجح فرضية اعتداء إرهابي وراء تحطم الطائرة الروسية، موقع دويتشه فيله، (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015)، <http://www.dw.com/ar/%D8%A8%D8%B1%D9%84%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D8%B1%D8%AC%D8%AD-%D9%81%D8%B1%D8% B 6 % D 9 % 8 A % D 8 % A 9 - % D 8 % A 7 % D 8 % B 9 % D 8 % A A % D 8 % A F % D 8 % A 7 % D 8 % A 1 - % D 8 % A 7 % D 8 % B 1 % D 9 % 8 7 % D 8 % A 7 % D 8 % A 8 % D 9 % 8 A - % D 9 % 8 8 % D 8 % B 1 % D 8 % A 7 % D 8 % A 1 - % D 8 % A A % D 8 % A D % D 8 % B 7 % D 9 % 8 5 - % D 8 % A 7 % D 9 % 8 4 % D 8 % B 7 % D 8 % A 7 % D 8 % A 6 % D 8 % B 1 % D 8 % A 9 - % D 8 % A 7 % D 9 % 8 4 % D 8 % B 1 % D 9 % 8 8 % D 8 % B 3 % D 9 % 8 A % D 8 % A 9/a-18834990>

2- Robert Burns, Pentagon chief says Russia, China potentially threaten global order

<https://www.bostonglobe.com/news/nation/2015/11/07/carter-says-russia-china-potentially-threaten-global-order/XpBljLTa23wjXXnjB53hHO/story.html>

3- كلمة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، موقع يوتوب، تم نشره في 28 سبتمبر/أيلول 2015 (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<https://www.youtube.com/watch?v=anKLSduPKaY>

4- Russia must work with, not against, America in Syria, The Financial Times, October 4, 2015 - Zbigniew Brzezinski (تاريخ الدخول 4 أكتوبر/تشرين الأول 2015).

<http://www.ft.com/intl/cms/s/0/c1ec2488-6aa8-11e5-8171-ba1968cf791a.html#axzz3op4spWhK>

5- J O S E P H L. S T R A N G E and RICHARD IRON, Center of Gravity, What Clausewitz, Really Meant, JOINT FORCE QUARTERLY, JFQ / issue thirty-five, October 2004, P 20-27.

<http://www.clausewitz.com/bibl/StrangeAndIron-COG-JFQ.pdf>

6- THOMAS GROVE, Russia Said to Redeploy Special-Ops Forces From Ukraine to Syria .. Wall Street Journal. Updated Oct. 23, 2015 11:14 p.m (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://www.wsj.com/articles/russia-said-to-redeploy-special-ops-forces-from-ukraine-to-syria-1445636834>

7- Leonid Bershidsky, Saudi Arabia's Oil War With Russia, Bloomberg review, OCT 16, 2015 1:22 PM (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://www.bloombergview.com/articles/2015-10-16/saudi-arabia-s-oil-war-with-russia>

8- Brent crude oil price dips below \$50 a barrel, bbc, January 2015

(تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://www.bbc.com/news/business-30707638>

9- Prof. Nouriel Roubini, Chairman, Roubini Global Economics, at the 15th Annual Herzliya Conference .2015.

(تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<https://www.youtube.com/watch?v=aa-di0pT0hI>

9- 10-- Katy Barnato, Why sanctions against Russia are here for the long-haul, CNBC,Monday, 5 Oct 2015 | 1:29 AM (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://www.cnbc.com/2015/10/05/why-sanctions-against-russia-are-here-for-the-long-haul.html>

11-Andre Tartar and Caroline Alexander, Turkey May Find Life Without Russian Gas Easier Said Than Done, Bloomberg,October 12, 2015 (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015 — 8:00 AM).

<http://www.bloomberg.com/news/articles/2015-10-12/turkey-may-find-life-without-russian-gas-easier-said-than-done>

12-Anders Aslund, The only cure for what plagues Russia, The Financial Times, December 17, 2014 6:14 am (تاريخ الدخول 12-December 2014).

(9/11/2015)

<http://www.ft.com/intl/cms/s/0/770f73c2-8541-11e4-ab4e-00144feabdc0.html#axzz3qyX8pASm>

13-MICHELLE NICHOLS,U.S. says Russia strikes in Syria bolster Islamic State militants, Reuters, World | Thu Oct 22, 2015 11:45pm (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://in.reuters.com/article/2015/10/22/mideast-crisis-russia-usa-idINKCN0SG2EL20151022>

14-Barack Obama,President Obama: Our fight against violent extremism Barack Obama, los Angles Times,17 februray 2015, 8.30 PM (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

<http://www.latimes.com/opinion/op-ed/la-oe-obama-terrorism-conference-20150218-story.html>

15- الظواهري يدعو الجهاديين في سوريا والعراق إلى توحيد الصنوف والتعاون، موقع إذاعة فرانس 24، أ. ف. ب، آخر تحديث: 13 سبتمبر/أيلول 2015 (تاريخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015).

http://www.france24.com/ar/20150913-%D8%A7%D9%84%D8%B8%D9%88%D8%A7%D9%87%D8%B1%D9%8A-%D8%A7%D9%84 %D9%82%D8%A7%D8%AC%D9%87%D8%A7%D8%A8  
8 4 % D 9 % 8 2 % D 8 % A 7 % D 8 % B 9 % D 8 % A F % D 8 % A 9 - % D 8 % A C % D 9 % 8 7 % D 8 % A 7 % D 8 % A F -  
% D 8 % A 7 % D 8 % B 1 % D 9 % 8 7 % D 8 % A 7 % D 8 % A 8  
16 - الكنيسة الروسية: التدخل بسوريا معركة مقدسة. موقع الجزيرة نت، (تاریخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015)،  
http://www.aljazeera.net/news/international/2015/10/1/%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%86%D9%8A%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3%D8%A9  
%D9%84%D8%A8%D8%B3%D9%88%D8%A1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D8%A8%D8%B3%D9%88%D8%A1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%85%D9%82%D8%AF%D8%B3%D8%A9  
17 - الزياني ينتقد تصريحات لافروف حول سوريا، موقع جريدة الرأي القطرية، أ ف ب، تحديث: الأحد 25 مارس/آذار 2012، الساعة 3:00 صباحاً بالتوقيت المحلي لمدينة الدوحة، (تاریخ الدخول 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2015)،  
http://raya.com/mob/getpage/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/40fed2ee-d527-45a4-a72e-4317b5db2dd8

مركز الجزيرة للدراسات

المصادر: